المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

# فزّان من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر

*عبدالقادر سوداني[1]

[1]جامعة صفاقس وجامعة قفصة، تونس.

**الملخص**

تكمن أهمية منطقة فزّان أنها ذات موقع استراتيجي يربط الصحراء بالبحر، وتربط كذلك أطراف تونس والجزائر وليبيا؛ ولذلك كانت مدار اهتمام كل القوى المسيطرة على المتوسط عبر التاريخ. وخلال القرن التاسع لم تفقد فزّان جاذبيتها، فقامت الدول الأروبية بإرسال المستكشفين إلى المنطقة حتى يكنهوا سبل السيطرة على الجناح الغربي للإمبراطورية العثمانية؛ ولذلك كان الصراع محتدما بين أنجلترا وفرنسا من أجل ترسيخ موطأ قدم لهم بالاستفادة من آثار الرحالة، تلك الآثار التي حملت في ثناياها معلومات مهمة في شأن طبيعة المعيش اليومي في منطقة فزان، وكذا ذهنية السكان وعلاقتهم بمركز الحكم.عوّلنا على كتابات الرحالة الفرنسيين خلال القرن (19)؛ ذلك القرن الذي شهد تحولات جيوسياسية ألقت بتداعياتها على كل المنطقة.

**الكلمات المفتاحية:** الرحالة، فزّان، ذهنيات، العادات، الاستعمار.

# Fezzan through the writings of French travelers during the nineteenth century

*Soudani Abdelkader[1]

[1]University of Sfax and University of Gafsa, Tunisia

**A B S T R A C T**

The importance of Fezzan lies in its geographical location that connects the African desert with the Mediterranean Sea, as well as its control over most of the trade caravan routes, and therefore it was of interest to the European powers seeking to occupy Africa, and these imperialist countries sought to send explorers to learn about this vast and mysterious area.

We will rely on the writings of travelers to study the society in Fezzan as well as the customs and traditions. By dividing this research into two elements, the first is concerned with how these travelers came to Fezzan, while the second element will examine the backgrounds of the travelers' observations.

We will rely on approaches as a research methodology to ensure the greatest degree of scientific objectivity.

**Keywords:** Fezzan, Travelers and explorers, customs and traditions, colonization.

## المقدمة

دون أن نتطوح كثيرا في عراقة إقليم فزّان عبر التاريخ، فقد حظي هذا الإقليم بموقع استراتيجي جعله قبلة عدد من الرحالة لأغراض متباينة، علمية حينا ولغايات إمبريالية في أحيانٍ أخرى، ففزّان تربط بين الصحراء والبحر، وهي نقطة ارتكاز مهمة في مراقبة شمال القارة الإفريقية ووسطها.



* مؤلف البحث: عناوين البريد الإلكتروني abdelkadersoudani5@gmail.com – المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل25–26 نوفمبر 2024– جامعة فزان

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

وفضلا عن الثراء الطبيعي لهذا الركن من طرابلس الغرب؛ فإن ثراء ساكنتها وتنوع الطبوغرافيا والديموغرافيا زاد من اهتمام الأجانب بها، فزيادة على مكانتها التجارية وواحاتها الممتدة، فإن ظهيرها الرعوي ساهم في ثراء ساكنتها، وقد تراوحت علاقاتها بمركز الحكم القارمنلي والعثماني، بين الاستقلال وبين وشائج مترهلة من التبعية، وما انجرّ عن ذلك من سيطرة مبدأ المغالبة على تواصل الجانبين.

ونتيجة تلكم العوامل فقد لبثت منطقة فزّان محط اهتمام الرحالة والمستكشفين الأجانب، فمنذ بواكير الحقبة الحديثة، موضوع اهتمامنا، تقاطرت الرحلات والحملات الاستكشافية على هذه المنطقة المغمورة بالنسبة للأروبيين، ولذلك فقد عجّت ملاحظات الرحالة بكل تفاصيل الحياة في مجتمع فزّان، وكذا طرق القوافل والموارد التي يزخر بها الإقليم، وهذا ما يمثّل مصدرا لا محيص عنه لكل باحث في تاريخ فزّان.

ولتفكيك هذه القضايا إرتأينا طرح جملة من الإشكاليات؛ لعل أبرزها طبيعة المجتمع الفزاني من عادات وتقاليد وذهنيات، وكذا علاقة إقليم فزّان بالحكم المركزي في طرابلس، مع القارمنليين ثم العثمانين بعد 1835.

وأما المدى الزمني لهذا البحث فيشمل القرن التاسع عشر بأكمله؛ ذلك القرن الذي تكشّفت فيه النوايا التوسعية للقوى الغربية، إذ كانت الحاجة ماسة لمعرفة خصائص المجالات المراد السيطرة عليها، لذلك تكثفت الحملات الاستكشافية إلى دواخل إفريقيا. ومع الاحتلال الفرنسي للجزائر أمسى الصراع على أشدّه من أجل مراقبة التخوم الجزائرية من قبل الفرنسيين، ولتأمين موطأ قدم بالنسبة لبريطانيا.

ولتفكيك جملة هذه القضايا إرتأينا الركون إلى كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة، لا سيما الفرنسيين منهم، بحكم عامل اللغة، من قبيل دو لا فاي De Lafaye وكرابلي Craplet وهنري ديفريه Henry Deveyrier، أو تلك المصادر المعرّبة مثل الرحالة الألماني غوستاف نختغالGustave Nachtigal وهنري بارث Henry Barth وفريديريك هورنمان Fredreich Hornemann وغيرهم... ومعلوم أن "العين الخارجية" لهولاء الرحالة تختلف عن "العين المحلية" التي ألفت بعض الملاحظات وأسقطتها من كتاباتهم، زيادة على تحرر الرحالة من ضغط السياق المحلي.

**المواد وطرق العمل**

لقد سعى الباحث لتقسيم هذه الخطاطة إلى عنصرين رئيسيين: أما العنصر الأول فاهتم بحيثيات وفود الرحالة صوب إقليم فزّان وأبرز الملاحظات التي أوردوها، وفي العنصر الثاني سيهتم الباحث بتبيان الدلالات التي حملتها الرحلات الاستكشافية وتداعياتها على فزّان. فلا مندوحة من الإشارة إلى أن الرحلات الاستكشافية كانت تتم برعاية من الحكومات الأروبية؛ مما يعكس الأهمية البالغة التي تمثلها ملاحظات الرحالة، من أجل كنه سبل السيطرة على البلاد والعباد في منطقة الساحل والصحراء الإفريقية. فالصراعات الأروبية ألقت بظلالها على فزّان، فالتنافس الفرنسي البريطاني كان في أقنومه صراعا حول السيطرة على المفاصل الكبرى: التجارية، والاستراتيجية، وكانت منطقة فزّان أبرز مجالات التنافس.

ولبلوغ أقصى درجات الموضوعية البحثية سيتبع الباحث المناهج الذي يجمع التاريخ المحلي بالتاريخ المقارن، وكذا الأثنوغرافيا والأنتروبولوجيا. فضلا على أنها أداة اكتشاف لنظم التفكير والرموز التي تستند إليها المؤسسات والممارسات التي تحقق حكم الناس[1]. وتلتقي في ذلك مع كتابات الرحالة الذين احتفوا بالعجيب والفانتاستيك في المجتمعات التي زاروها.

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

بعد تناول نماذج من الرحالة الفرنسيين إلى منطقة فزّان، يمكن أن نقف على جملة من الحقائق؛ لعلّ أبرزها: أن تنامي حركة الاستكشاف خلال القرن التاسع عشر كانت كناية عن تلك المرحلة الانتقالية التي عرفتها كل المنطقة بالمرور من المغرب الجهادي العتيق، إلى المغرب الجديد الخاضع للكولونيالية، وخروج أوروبا من مركزيتها اللاثنية l'ethnocentrisme بفضل جهود النخبة العالمة.

وأراني مدفوع إلى القول بأنه علينا أن نجدل في ضفيرة واحدة، تاريخ كل من تونس وفزّان، ومن خلالهما تاريخ كلا البلدين (تونس وليبيا)، فالقواسم المشتركة بين تونس وطرابلس الغرب من التعدد والتنوع بمكان، لذلك فإن الحراك السكاني الذي لم يكن يأبه كثيرا بالفواصل السياسية، ساهم في إثراء الشخصية الحضارية لتونس وطرابلس الغرب.

وما يمكن استخلاصه كذلك أن السلطة السياسية في تونس وطرابلس الغرب اضطرت إلى التعامل مع الشأن الزراعي، واعتبرته فيئا للحاكم يحق له اقتطاع ما يلبي احتياجاته والفريق المحيط به، ولم تكن للسلطات المتعاقبة استراتيجية تنمية الواحات؛ مما خلق فجا تقليديا لغياب تصور" اقتصادي" بالمعنى الحديث للمصطلح. فيمكن لمكانة فزّان بين الصحراء والبحر أن تكون سببا في إيجاد فضاء تسويقي لما زاد عن الحاجات الجماعية، لكن بعضا من ملامح "العتاقة" لدى المجتمع الواحد منعت التطور الزراعي والتجاري، وبالتالي تطور هذه الفضاءات العشوائية إلى مركز مشعّ.

وننتهي إلى القول بأنه ليس غرض التاريخ هو إبقاء القديم في قدمه بقدر ما هو تثمين التاريخ وتجاوز هناته، فبين فزّان وبين تونس مجالات رحبة للتعاون، لكن هذا التعاون بقي حبيس المجهودات الفردية والسياسات العابرة.

**النتائج والمناقشة**

I – فزّان: التاريخ والجغرافيا

**(1)** منطقة فزّان بين الخصوصيات الداخلية والضغط الخارجي

تعدّ فزّان، أو" لؤلؤة الصحراء" كما يطيب للبعض تسميتها، من المدن الضاربة جذورها في التاريخ، مستفيدة في ذلك من موقعها الواصل بين الصحراء والمتوسط من جهة، وبين دواخل إفريقيا والشرق العربي من جهة أخرى؛ لذلك تفاعلت هذه المنطقة مع الحضارات المتوسطية والصحراوية سواء بسواء، من قبيل قرطاج وروما، ثم دانت للعرب عام 581. ثم كانت في تماس مع الأتراك. إثر ذلك احتلها الإيطاليون عام1924 وأخضعوها لسلطتهم حتى خروجهم منها ودخول القوات الفرنسية إليها عام 1940، وظل الفرنسيون فيها حتى1955، وقد أدى ذلك إلى استيعاب فزّان لإفرازات جملة الحضارات المتعاقبة على المنطقة، وفتح أفق للعلاقات الخارجية.

وجلّ بنائها منحوت في الصخر طبق هندسة القصور الأمازيغية القديمة، وهي على طبقات متتابعة تستجيب للإعاشة والتخزين، ويعدّ "قصر الغول" في الجهة الشمالية و"قصر بن عمير" و"قصر مقدول"[2] تبيانا على عراقة البناء والتعمير بهذه الأرجاء.

ويمكن الإشارة كذلك إلى أن مدينة فزّان تحتوي على عيون جارية، ومنها تموّن حاجيات الساكنة من شرب وسقاية الواحة وغيره. والعيون تمثل النواة الأولى في نشأة المدينة، ثم جعلتها تزدهر وتحافظ على جانب من ثروتها. ولقد أولى سكانها اهتماما كبيرا بها؛ حيث أقاموا لها نظاما دقيقا من أجل التحكم في مياهها وتوزيعها، من خلال مد شبكة محكمة

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

من السواقي والقنوات، وتوزيع استعمال مياهها بين الاستخدام اليومي في المنازل وري غابات النخيل وبساتين العنب[3].
ونتيجة قوة دفق العيون فقد ازدهرت واحات فزّان، حتى وصل عدد النخيل في وادي الآجال 160 ألف نخلة، و100 ألف نخلة ناحية القطرون، و130 ألف نخلة بسهل الجفرة، أما غات وتوابعها فيقدر عدد النخيل فيها ب50 ألف[4].
أما في المستوى البشري، فيعدّ أولاد سليمان من أقوى المجاميع القبلية، وتمتد سطوتها من خليج سرت إلى فزان، وينقسم السكان إلى عرب وطوارق وأفارقة، فمثّلوا فسيفساء عرقية، أثرت المنطقة بروافد حضارية متنوعة. فكل مجتمع يميل إلى الانتظام في سمات مشتركة واستبطان الثوابت الرمزية، ويدين بعض السكان بالمذهب الخارجي في فزان وجبل نفوسة ومنطقة الأعراض، ويعتبر كاردنر kardiner أن كل نظام اجتماعي ثقافي يتميز بشخصية أساسية، وأضاف بأن الأنا هي ترسّب ثقافي[5].
وتكمن فرادة المجالات الواحية في فزّان، أن مجالات الاستقرار غالبا ما تجنح إلى السلم إزاء السلطة المركزية، لأنها غير قادرة على المناورة وترك موطنها. ولذلك نرى أن عيون مجتمع فزّان كانت تسارع إلى ربط صلات بالحكم المركزي[6]، إلا أن العسف الضريبي جعل علاقة فزان بمركز الحكم تتّسم بالكثير من التّشاد، حتى وصل الحال بسكان فزّان إلى الاعتراف بكل غازي متوثب على الحكم، مستفيدين في ذلك من بعد ناجعتهم على مركز الحكم القارمنلي، وعدم دربة الجند الترك باقتحام أوعارهم القصيّة، وسنعود لهذا الأمر في ثنايا المقال.
وبحكم الموقع الجغرافي[7] والصلات التجارية؛ فقد ربطت فزّان وشائج وطيدة مع إيالة تونس، ولذلك نرى أنها أحيانا كانت لم تكن تدين بالولاء لأي سلطة إلى أن غزا أطرافها أبو فارس عبدالعزيز الحفصي سنة1407، وأصبحت تؤدي له ضريبة منتظمة[8]. بل إن سطوة الحكم المرادي أصبحت تقدم العون لباشا طرابلس ضدّ تمرّد القبائل الليبية مثلما حدث سنة1662[9]، وبذلك كان إقليم فزّان بين ضغط النوايا التوسعية للسلطة المرادية غربا، والحملات الزجرية لحكام طرابلس.
وقد ألقت تلكم الخصائص الطبيعية والبشرية بتداعياتها على الهوية الفردية والجماعية للمجتمع الفزّاني، التي بدورها ساهمت في توجه جانب من أهل فزّان إلى البلاد التونسية. فعموم المجتمع الطرابلسي لم يعرف تلك الموجات الهجرية المتواترة على الشاكلة التونسية، تلكم الموجات التي يستفيد فيها المجتمع من الخلفية الحضارية لكل جماعة. وتبعا لذلك يمكن الزعم أن هوية[10] منطقة فزّان، منذ القرن 19، هي هوية ستاتيكية ومشتتة بين الأمة والقبيلة[11]، فكانت بمثابة الهوية الضائعة بين الهويات[12]. وكان لهذا التعدد انعكاساته المعيشية والذهنية لعموم سكان المنطقة، ولا سيما اتّجار أهل فزّان مع الخارج؛ مما أكسبهم قدرة التعامل مع الآخر

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

**(2) دور التجارة في منطقة فزّان**

تتجاوز التجارة كونها مجرد عملية بيع وشراء وتبادل للبضائع، إلى كون القوافل التجارية كانت كناية عن نقل للأفكار والعادات والتقاليد، فكل جماعة تهاجر من موطنها الأصلي، بشكل عابر أو دائم، إلا وتترك أثرا ماديا ورمزيا في مجال الاستقبال.

ولاغرو أن فزّان قد ارتبط وجودها بالتجارة، وقد عرفت تاريخيا بـ«مدينة القوافل» لمحطتها الرئيسية على خط التجارة بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى، ولها علاقة تاريخية مزدهرة مع قبائل التمبكتو في مالي. في هذا السياق، فقد اشتهرت فزّان بصناعة الجلد وتصديره، وكذا الاتجار في موارد الصحراء. فأغلب القوافل التجارية كانت تنطلق من تخوم بحيرة التشاد، وتأخذ طريق تادمكة– مرزق– غات ثم غدامس، ومن هذه المدينة تتفرق القوافل شطر طرابلس وتونس والجزائر[13]، وهي بلاد الجلد والنحاس والتبر واللبان والعاج وريش النعام؛ وهي قِبلة الرحّالة الأوروبيين والأفارقة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما كانت حلقة الوصل الثقافي والفكري والتجاري بين أوروبا وأفريقيا. واستفاد التجار الفزّانية من قوة الوشائج القبلية بين فزّان والإيالة التونسية، وكذا أهمية المبادلات التجارية بين الجانبين الذي ارتفع خلال القرن 18 إلى حوالي مليونا فرنك[14].

ومما زاد من أهمية فزّان التجارية هو موقعها الاستراتيجي الواصل بين المتوسط وبين دواخل إفريقيا، فأقصر الطرق الرابطة بين البحر والصحراء يمر من فزان ثم طرابلس، ومنها شطر مختلف أركان المتوسط.

وبذلك لعبت فزّان دورا تجاريا مهما نظرا لموقعها الاستراتيجي؛ حيث كانت تمثل محطة رئيسية على طريق القوافل التجارية المارة جنوب الصحراء الكبرى، والتي كانت تنزل فيها للراحة والتزود بالماء والمؤونة، ولذلك عرفت ازدهارا اقتصاديا وتوسعا عمرانيا كبيرا، كما تضاعف عدد سكانها. ولئن كان لهذا التزايد الديموغرافي تأثيرات أيجابية على قوة المجموعات الفزّانية وتنامي السوق الاستهلاكية، ففي الآن نفسه باتت الواحات المترامية غير قادرة على تأمين معاش ساكنتها، مما حمل جموعا منهم على الهجرة إلى تونس، لقرب حواضرها وتشجيع السلطة الحسينية لإستنبات فئات دخيلة في المجالات المخزنية[15].

ولا أدّل من العائدات المالية للتجارة الصحراوية من تمتع المشايخ في طرابلس بمقدار معلوم من أعشار الجباية، وبالمرتبات الميرية المعروفة "بالمقامة"، وكانوا يغتنمون العائدات المالية التي تدرّها التجارة الصحراوية على منطقة فزّان[16]؛ من أجل اعتصار هذه المنطقة جبائيا، مما دفع بالكثير من الأعيان إلى الهجرة صوب تونس.

وفي ذات الإطار، فإن تلكم المعلومات كانت عصارة ما أنتجه الرحالة الذين كتبوا عن تاريخ المغرب، والتي حملت زوايا نظر متعددة ومختلفة إلى حد التباين، وفق خلفية الكاتب أكان أسيرا أو رهبانا أو مخبرا أو عالما.

**II– الخصوصيات الحضارية لمنطقة فزّان**

**(1) الذهنية والسلوك "الفزّاني"**

إنّ سكان طرابلس الغرب هم مزيج من أعراق عديدة، تعايشت فيما بينها طيلة سبعة آلاف سنة على الأرض الليبية مكونة من: العرب، الأمازيغ، الطوارق، التبو، ويتألف من عدد عديد من قبيلة القبائل التي تمتد من شرق البلاد إلى

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

الحدود الغربية وعلي امتداد الساحل، ومن شمالها إلى أقصي جنوبها، وتمثل القبائل العربية وجماعات الأمازيغ الأغلبية الساحقة لمكونات المجتمع.

ولا بد من الإشارة إلى أن طرابلس الغرب تمتد على مساحة شاسعة؛ مما يجعل من الصعوبة بما كان تواصل أقاليم البلاد مع بعضها البعض، زيادة على أن طول الشريط الساحلي يقدّر بزهاء ألفين كيلومتر، وتخترقها الهضاب والصحاري من كل جانب، مما جعلها مفككة طبيعيا ومتباعدة سكانيا. وقد انعكس ذلك على تواصل الكونتونات السكانية في مختلف أرجاء البلاد، كما حال دون تشكّل هوية جامعة لكل الأحياء الاجتماعية في كامل البلاد.

فالصحراء الشاسعة حالت دون ديمومة التواصل بين كل سكان البلاد، وخاصة تلكم الواحات المبعثرة في البيداء، مثل غات والكفرة. ولا ريب أن صعوبة العيش في الصحراء جعلت من طرابلس الغرب مجالا طاردا للسكان، ناهيكم عن عدم وجود موجات بشرية وافدة خلال القرن 19. فهذه الستاتيكية في البنية المجتمعية حالت دون تجدد الهوية الجماعية، لغياب العناصر الوافدة؛ الأمر الذي ساهم في إثراء المشهد الحضاري للبلاد.

ومن تجليات ذلك التباعد يمكن ذكر تعدد اللهجات لدى المجاميع السكانية، والذي يحيل بدوره إلى التنوع العرقي والأثني في طرابلس الغرب، من عرب وأمازيغ وأفارقة وكورغلية وأتراك وغيرهم، ومعلوم أن كل إثنية توزعت في مكان مختار، فالتبو والطوارق تركزوا في جنوب البلاد، أما الأمازيغ ففي الجبل الغربي، أما المجموعات العربية ففي النطاق السهلي، في حين خيّر الأتراك والمماليك الإقامة في الساحل والمنشية.

وقد ساهمت العوامل المناخية والطبوغرفية في التأثير في الهوية الجماعية التي جنحت إلى الهويات الأولية مثل القبيلة، كذلك أن شظف العيش، ووعورة الصحراء، ومنعة الجبل أكسب السكان نوعا من الخشونة في الدفاع عن المهم العقدي (بمعنى المعتقدات العامة) والمعيشي، وتوثب دائم للاحتجاج، باعتبار أن البدوي ينحو سليقة إلى الحرية، وبالتالي عدم النزول لضوابط الخضوع للحكم السياسي.

فقد قسّم صراع الإرادات مجالات ليبيا إلى أجزاء متناحرة، من ذلك مجال أولاد علي الذي يمتد من مصر إلى طبرق، وكان يديرها ما يشبه الدستور أو ما يسمى بدربة أولاد علي أو شريعة الصحراء الذي سنّ منذ 1653، ويتكون من 67 مادة تقنن العلاقات بين أعضاء القبيلة، وتحدد عقوبة كل من يخالفها مثل الجلوة أي النفي، ومن يريد الخروج عن نظام القبيلة يقع التبري منه أو ما يعرف بالبراوة بعد تداول جميع القضايا في الميعاد أو المسار.

وبهذا المعنى، فإن العصبية القبلية هي تعبيرة عن الملكية الجماعية للأرض، وتشابه الهويات الكبرى ووحدة المصير، وتنسب القبيلة عادة إلى جد مشترك للعشائر. وهو ما يشرّع للقبيلة مهاجمة الخارجين عن النسق السلالي مثل صراع التوارق وأولاد سليمان في جنوب غرب فزّان، أو حروب الزوية والتبو في جنوب شرق برقة. وبذلك فإن القبيلة ليست مجرد تجمع بشري، بقدر ما تحيل إلى الانتماء إلى نمط عيش وطريقة تفكير، إنها ثقافة عيش متكاملة الأركان، هذه الثقافة تختلف عن غيرها من البنى المجتمعية.

**(2) تواصل فزّان مع الحكم المركزي**

نتيجة الأزمات الخانقة التي تردى إليها الحكم القارمنلي منذ أخريات القرن 18، فلم يجد بدا من الخضوع إلى إملاءات القوى الأوروبية، لا سيما أن السلطان العثماني –حامي الحمى والدين– أمسى بدوره يشكو الضعف، وقد تسرّب ذلك الضعف من مركز السلطنة إلى الأقاصي، ومنها طرابلس الغرب، ومنها تتالت علامات الوهن في المجالات التابعة

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

لها، ومنها فزّان. لذلك نرى أن البلاط القارمنلي كان يوصي بالاهتمام بالرحالة وعدم التعرض لهم، بل ويحرض على حفاوة استقبالهم كما حدث مع الرحالة دومينقو باديالبيك سنة 1805.[17]

وغير خاف أن الرحلات الاستكشافية عكست ذلك الصراع المحموم بين أنجلترا وفرنسا لإيجاد موطأ قدم في طرابلس الغرب، وما رافق ذلك الصراع من تنافس بين الرحالة لحيازة أكبر قدر من المعلومات عن المنطقة، وكان كل طرف يسعى إلى الضغط بكل السبل على الباشا القارمنلي؛ ليكون أداتهم في التنفذ داخل البلاد. وفي هذا السياق، في سنة 1818 قام الرحالة الأنجليزي "لاينق" برحلة إلى فزّان، وتلقى توصية من يوسف باشا قارمنلي، ومن سلطان فزّان محمد المكني، وكان مرد هذا التعاون هو تورط يوسف باشا قارمنلي في ديون ذات بال مع الأنجليز، لذلك كان لا يقوى على رفض طلباتهم، وخاصة مواجهة النفوذ المتنامي للقنصل "وارنغتون".

ونتيجة لهذا الصراع فقد أمست طرابلس الغرب ميدانا للحرب الصامتة بين فرنسا وأنقلترا، وكانت الرحلات مدار هذا التنافس الإمبريالي بين الدولتين، وتمثّل حادثة قتل الرحالة "الميجور لاينق" أبرز مثال على خطورة هذا الصراع على طرابلس الغرب؛ مما حدى بيوسف باشا قارمنلي إلى فرض غرامة باهضة على سكان غدامس لأنهم سرقوا بندقية "لاينق"[18] ، وهو ما يكشف أن الضغط الخارجي الناجم عن صراع الاستكشاف بين الدول الغربية قد ألقى بتداعياته على تواصل السلطة المركزية في طرابلس مع المجتمع في فزّان، ونلمس هذا جليا في الدعوة الصريحة التي أطلقها ماثيوزو هنري ميشال بأنه على تركيا أن تفتح– دون قيود– "مستعمراتها" للرحالة الأجانب[19]، مما يكشف حجم الاختراق الذي أحدثه الرحالة في شأن الاستقرار الداخلي لمنطقة المغارب، ومن ذلك إحداث شرخ بين السلطة المركزية والقبيلة.

وكما أسلفنا القول، فقد خضعت التركيبة الاجتماعية في طرابلس الغرب إلى سيطرة القبيلة التي مثّلت تركيبة بنيوية ستاتيكية، ويتمثل المقياس الثابت لتعريف التنظيم القبلي في الأولوية المطلقة التي تكتسيها مسألة الانتماء، تلك التي تسمح بتصنيف المجموعات القبلية حسب عدد "التزّاسة" لديها. وتستعيض القبائل الأقل شوكة بتحالفها مع النظام السياسي لتزيد من قوتها، الأمر الذي سمح للسلطة المركزية بالتوغل في مختلف أرجاء البلاد. إن ما يشدّ الانتباه في شأن بناء الدولة في الحالة الطرابلسية في الحقبة الحديثة هو سيطرة بلاد البارود على بلاد المخزن، وقد عوّلت الأنظمة السياسية على اصطناع شبكة تحالفات تكفل ديمومة الحكم دون الركون إلى تجذير حضور الدولة في وعي وسلوكيات المجاميع القبلية.

نتيجة لذلك، اصطدمت حدود الفضاء السياسي بطرابلس الغرب بحدود كبرى وصغرى تداخلت في وعي السكان وواقع السلطة، وأعاقت البناء الناجز لمثال الدولة الحديثة، فهذه الحدود كانت العالم العثماني لدى السواد الغالب من السكان، وهي مجال سيطرة السلطة المركزية لدى اللفيف الحاكم، وهي تُخوم تحرك القبلية لدى البدو والأعراب، كما يمكن أن نقحم المجال المتوسطي لدى التجار وجانب من المماليك والقناصل. فكانت لكل فئة اجتماعية حدودها الخاصة بها، ويمكن أن نعزو هذا التموج إلى تشابك السياسي مع الديني مع التجاري في رسم معالم الحدود السياسية للجماعات البشرية.

المؤتمر العلمي الدولي الإرث الحضاري لفزان واستشراف المستقبل

journal@fezzanu.edu.ly

وقد بقيت الحدود القطرية في حالة غير ثابتة خلال القرنيين 18 و19، وستعرف طرابلس الغرب استقرارها في ملامحها كدولة خلال الحقبة الاستعمارية، فتكون ليبيا – كدولة مركزية موحدة – حدث حديث، ومرتبط أساسا بتاريخ الاستعمار الإيطالي، وإذا بقيت الحدود الجغرافية والسياسية تحت سيطرة الحكم المركزي فإن إلزام السكان بالخضوع الدائم لعلامات السيادة سيصبح تحديا لكل من باشليك طرابلس.

وهذا ما قد يفسّر محافظة القبيلة في ليبيا على سطوتها إذ باتت ركنا مكينا في كل مناحي الحياة، ومن ذلك الشأن السياسي، إذ وجدت القبيلة إلى جانب الدولة، فأولاد محمد أسسوا ما يشبه الدولة في فزّان، وجعلوا من واحة مرزق عاصمة لهم، وعرف هذا الإقليم في هذه الحقبة ازدهار اقتصادي كبير. أما النظام السنوسي فلم يكن يمارس نفوذا فعليا إلا في الحواضر الكبرى حذو بنغازي ودانت أغلب القبائل لحكمه.

فهل يعزى ضعف حضور الدين النقي لدى القبائل إلى إشكالية الأسلمة السطحية لسكان البوادي، أم أنّ الأمر يحتاج إلى مزيد البحث حول علاقة هؤلاء السكان بلفيف السّلطة؟

وصفوة القول، فإنه من دلالات تقاطر الرحالة خلال القرن 19، هو تباين موازين القوى بين العدوتين الشمالية والجنوبية؛ فالمشروع الإمبريالي الغربي بدأ يتجسد واقعا معاشا، وما تتالي الحملات الاستكشافية إلا دليل على مدى الضعف الذي تردت إليه الأوجاق المغربية؛ فالجناح الغربي للإمبراطورية العثمانية تحول من ثغر جهادي إلى مجال تتصارع عليه القوى الاستعمارية، وأصبحت كل مجالات الأوجاق المغربية مستباحة لنذر الاستعمار المباشر.

**قائمة المراجع**

[1] بلانديه، جورج. 2007. الأنتربولوجيا السياسية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت ص 16.

[2]ويوجد قصر مقدول في الجهة الغربية من سور المدينة وهو أثر روماني قديم وشكله دائري وله عدة أبواب منها باب خفي، وهو شبيه بما يوجد في العمارة التونسية في العهد العثماني، إذ كان الأتراك يشيدون بابا خفيا للهروب عند هجمات البدو والأعراب المنتشرين حذو المدن، ويسمى باب غدر، وهو ما يعني تشابه ذات الذهنية العمرانية في تونس وفزّان.

[3]يتشابه هذا النظام مع ما هو موجود في واحات قفصة والجريد، وهو نظام القادوس، مما يعني أن هناك تواصلا وطيدا بين واحة الجريد في تونس وواحات فزّان.

[4] غانم. عماد، أفريل 1982، غات في القرن العشرين، مجلة تراث الشعب، العدد 6، ص 146.

[5]بودون، ر. & بوريكو، ف. 1986، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم الحداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، ص 228.

[6] عندما قام صاحب جنوة بغزو طرابلس، توسل جماعة من تاجوراء بالسلطان العثماني لتخليصهم من هذا المغامر، وسارع أهل غريان وفزّان بمراسلة الوالي مراد آغة والاعتراف بسلطته على عموم طرابلس الغرب. ابن غلبون الطرابلسي، أبي عبدالله محمد بن خليل. د ت، تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، نشر وتصحيح وتعليق الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، المطبعة السلفية، القاهرة، ص 93.

[9] سوداني، عبدالقادر. السنة الجامعية 2008-2009، سياسة الاخلاء السكاني في العهد الحسيني 1705-1881، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف مبروك الباهي، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة صفاقس،ص 14.

[10] مصطلح الهوية هو مصطلح سياسي جاء في سياق صراع الأيديولوجيات، وهو منظومة مفاهمية تحتوي التفكير الفردي والجماعي. السيد حسين، عدنان. 2012، المواطنة أسسها وأبعادها، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ص 9.

[11] إن الأسرة الحاكمة هنا لا تسمح باختلاط دمها بدم الرعايا. توللي، ريتشارد. د ت، عشر سنوات في بلاط طرابلس: وصف شامل لذكريات صادقة عن طرائف البلاط وباشا الايالة الحاكم وعادات وتقاليد مسلمي المغرب والعرب والأتراك، نقله إلى العربية عمر الديراوي أبو حجلة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ص 96.

[12] إن إشكالية الهوية الليبية تعود إلى عدم وجود جذور تاريخية للدولة الليبية، فكانت دائما تابعة لدول الجوار من الشرق والغرب والجنوب، فالهوية الليبية هي هوية ضائعة بين الهويات: فوق القومية ودون الوطنية. الكف. محمد أحمد، جوان 2021، الهوية الليبية دراسة تحليلية من منظور الجغرافيا السياسية والاجتماعية، مجلة العلوم الانسانية والتطبيقية، العدد 11، ص 42.

[13] راجع في هذا الشأن: الرباصي، محمد يوسف، د ت، ازدهار تجارة القوافل بين الدولة الحفصية ودولة كانم والبرنو في العصور الوسطى، مجلة السائل.

[14] Rebillet, François. 1895, *Les relations commerciales de la Tunisie avec le soudan*, imprimerie berger- levrault, Nancy, p 15.

[15] ومعلوم ان الأتراك والطائفة الكوروغلية والمماليك والطرابلسية قد استوطنوا هذه المجالات المحظوظة، والتي حباها الحكم المركزي بسياسة عقارية تتماشى ورغبته في احاطة سلطته بحزام من الحلفاء. سوداني، عبدالقادر. 2020، تشكّل الدولة في تونس وطرابلس الغرب من بداية القرن 18 حتى منتصف القرن 19، تقديم مبروك الباهي، مؤسسة هانس زايدل، تونس، ص 34.

[16] نتيجة صعوبة اجتياز الصحراء فقد ارتفعت أثمان كل السلع من معدل120فرنك فرنسي إلى 150 فرنك.
Rebillet, François. 1895, *Les relations commerciales de la Tunisie avec le soudan*, imprimerie berger- levrault, Nancy, p9.

[17]راجع في هذا الشأن: الزليتني، ميلاد أحمد. د ت، موقف السلطات الحاكمة في ليبيا من نشاط الرحالة العرب والأوروبيين في ليبيا في الفترة 1798-1923، جامعة مصراتة، مجلة كلية الآداب، العدد الأول، ص ص 152-177.

[18] ماثيوزو. هنري ميشال، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، 2006، عبر طرابلس الغرب، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ص 197.